أثر القرآن الكريم في نثر الشيخ البشير الإبراهيمي

الأستاذة: صواغير فاطمة

جامعة تلمسان ـ الجزائر

إنّ أهم ميزة تميز بها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الإلمام الشامل بآي القرآن الكريم والاقتباس منه، وتضمين مقالاته آيات من الذكر الحكيم فقد حفظ الإبراهيمي القرآن وهو صغير جداً، واحتفظت ذاكرته بصور جميلة من القرآن وعبارات أروع واختزن في مخيلته ألفاظه القوّية وعباراته الموحية، وأصبح القرآن بذلك السند المرجعي لكل كتاباته حتى أنّ ظاهرة الاقتباس تكاد تلازم كتاباته، وتضفي عليها مسحة جمالية، ومتعة دلالية، وما يميّز الاقتباس من القرآن في كتابات الإبراهيمي، هو حسن الربط بين ما يودّ قوله وما جاء في القرآن حتى لا يكاد القارئ غير الحافظ للقرآن يتبيّن أين يبتدئ كلام الشّيخ وأين تبدأ الآية القرآنية فكان ذلك أمارة من أمارات بيانه التي زخرف بها آثاره الأدبية .

Abstract: **The effect of Quran on El-cheikh El-Bachir El-ibrahimi Prose.**

The main characteristic which distinguishes Elcheikh Mohammed Elibrahimi is the total knowledge of the Quran and quotes from it; and embed his articles with verses from the holey Quran. El-ibrahimi has learnt El Quran from an early age; his memory kept beautiful pictures of from Quran and wonderful expressions and stored in his imagination its strong words and meaningful suggestive.

And Quran became the basic resource for all his writings even the phenomenon quoting it almost accompanies his writings, give them a total tinge a provably fun, and what characterizes quoting from Quran in El-ibrahimi writings is the good coordination between what he wants to say and what is in Quran even the reader who does not learn Quran can differentiate when starts the speech of El-cheikh and when the Quran verse starts, so that was a sign among his literary signs that decorates his literature.

للشيخ الإبراهيمي إنشاء متين، بليغ، رائق الديباجة، واضح المعاني، بعيد عن الصّيغ الشاذة والتراكيب الجافة، برئ من الغموض والالتباس، وقد ظهرت شخصية الإبراهيمي بارزة واضحة للعيان، فكل كاتب يعتمد على طريقة معينة، مزوّدة بذخيرة من المعارف العامة والخاصة، مما يجعل كل كاتب يتميز عن كاتب آخر.

ثم إن الأعمال الأدبية المشهورة هي التي تطفح بمختلف الروافد بدءاً بالقرآن والحديث، وآثار السابقين من أشعار وخطب وأمثال وما إلى ذلك وكل ذلك ما هو إلا ثمرة من ثمار المحفوظات الغزيرة والتي انصهرت في ذاكرة المبدع ويعتبر القرآن الكريم رافدا أساسيا في نثر

الإبراهيمي ولا غرو في ذلك فإن الثقافة الدينية للإبراهيمي هي التي تمدّه بالشواهد الغزيرة وتجعل الجمال وقوة التأثير دَيْدن مختارات الشيخ التي يتمثل بها، فقد نشأ في بيئة يشكل القرآن فيها الركن الأساسي في الحياة الاجتماعية والثقافية، إذ حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين مع فهم مفرداته وغريبه "إن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث واللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما لكونهما ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصفى رونقا."[1]

استطاع الإبراهيمي بفضل حفظه للقرآن أن يُوَشِّيَ أسلوب نثره به، وخاصة بألفاظه وتراكيبه لأن " الألفاظ القرآنية تمتاز بجمال جرسها الذي يترك أثرا جميلا في الأذن وبالتالي تنساب في الوجدان والقلب بحيث يرسم المعنى في مخيلة القارئ والمستمع بدون إجهاد النفس للوقوف على الدلالة اللغوية اللفظة"[2]فالقرآن الكريم هو المنبع الاساسي الذي غرف منه الإبراهيمي ثقافته وهو النموذج المحتذي أسلوبا ومضمونا فللقرآن طرائقه في الهجوم على قلب القارئ والاستيلاء على وعيه وضمان استغراقه، والأذن تستسيغه وتأنس له، ومن حفظ القرآن وفهم مفرداته " اتخذه بحرا يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه" [3]، لذلك اتخذ الإبراهيمي القرآن معينا له في نثره فضمنه آيات من الذكر الحكيم، خاصة وأن ذاكرته قد احتفظت بصور جميلة من القرآن وعبارات أروع واختزن في مخيلته ألفاظه القوية وعباراته الموحية فأصبح القرآن الكريم السند المرجعي في نثره، ليضفي عليه مسحة جمالية ومتعة دلالية وما يميز الاقتباس من القرآن الكريم في نثر الإبراهيمي هو حسن الربط بينما يودّ قوله وما جاء في القرآن " حتى يكاد القارئ غير الحافظ للقرآن أن يتبين أين يبتدئ كلام الشيخ وأين تبدأ الآية القرآنية."[4]

لذلك فإن أناقة الأسلوب عند الإبراهيمي تأتي من هذه الخاصية وهي حسن الربط، وأيضا جودة السبك ومهارة تصريف آي القرآن على نحو من التضمين والاقتباس وتحويلها لغرض يخدم المتعة الفنية والأدبية ومن ذلك قوله مثلا: "لئن كان في الرياح لواقح الأشجار" فهي مقتبسة من قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[5] إن الإبراهيمي حين يرتكز في تكوين صوره التعبيرية على القرآن الكريم يفعل ذلك ليتدبر في معانيها وليلقي بظلالها على تعبيره كما نجده مثلا وهو يتساءل في عتاب رقيق (وهل طاف بك طائف السلو) فهي مقتبسة من قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[6].

والاقتباس من القرآن لم يتوقف عن المعنى فقط فقد يسوق الإبراهيمي كلمة واحدة قد تفضي إلى آية كريمة كقوله مثلا: (فعسى أن يكون المسك ختاما)فكلمة مسك تحيلنا على الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾.[7]

إن هذه الخاصية في أسلوب الإبراهيمي تكاد تلازمه في كل كتاباته وذلك نتاج طبيعي لذاكرة حفظت القرآن وداومت على قراءته ولازمت درسه وتدبرت معانيه فأضحى هذا المورد مصورا في فكره، دائرا على لسانه، متمثلا في قلبه ذاكرا له في كل ما يرد عليه من وقائع من القرآن الكريم.. كقوله" (سلام عليك يوم لقيت من عقبة وصحبه برّا... وسلام عليك يوم تصبح حرا متهللا مفترّا معتزّا بالله لا مغترّا"[8]فهي مقتبسة من قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[9].

فكل لفظة من نثر الإبراهيمي توقفنا أمامها لنبحث لها عن مرجع من زاده الديني فقوله مثلا: (لله في تقدير السنين أسرار فيها تحسب الأعمار) مقتبسة من قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[10] .

بذلك يعد القرآن أهم مصدر وأبلغه تأثيرا في أدب الإبراهيمي فقد كان له المعين المتفجر سحرا والمتدفق بيانا يملأ النفس ويطرب الآذان.

وكنموذج لذلك قوله في مقال في تقديم لجمعية العلماء، وأعمالها ومواقفها فيقول "...وجمعية العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام وبحكم العمومة والخؤولة في سلسلة من الزمن ذرعها ثلاثة عشر قرنا من الزمن مزاج فطري، أحكمت القدرة تداخل أجزائه ..."[11] فقد اقتبس الإبراهيمي قوله من القرآن في قوله تعالى ﴿**ثم** فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوه﴾[12]

ونجد نموذجا أخر في قوله وهو يتحدث عن إيديولوجية جمعية العلماء فيقول: "إن جمعية العلماء قطعت الطريق بينهم وبين الأمة، وإنها تدخلت في السياسة وما ينبغي لها، لأنها لا تحسن السياسة ولا تنطق بلسانها، لسان السياسة أعجمي ولسانها عربي مبين "[13]فهو يقتبس من قوله تعالى ﴿**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾[14].

ويرد الإبراهيمي على هذا الاستعمار قائلا: " ...إننا إذ حكمناك إلى الحق غلبناك، وإذا حكمتنا إلى القوة غلبتنا ولكننا قوم ندين بأن العاقبة للحق لا للقوة "[15] فهو يحتكم في هذه المقالة إلى الآية﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[16] .

ويقول الإبراهيمي أيضا مقتبسا من القرآن "...و إن هذه الحكومة تقدم التجريب على التخريب وقد جربتم فوجدت منكم جدارا متداعيا للسقوط كما أقامته، بل خربته لأنه لم يكن لغلامين في المدينة ولا كان تحته كنز لهما، ولا كانت هي تنظر بعين صاحب موسى "[17] فهو مقتبس من قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾[18]

وبذلك يعد القرآن أهم مصدر وأبلغه تأثيرا في أدب الإبراهيمي، فكان له المعين المتفجر سحرا المتدفق بيانا يملأ النفس ويطرب الأذن على حد تعبير عبد الرزاق قسوم " إن فكر الإبراهيمي تحكمه صعوبة مستعصية على العقل العادي، تصنعها غرابة اللفظ وبراعة الصياغة، وأناقة في الأسلوب ومرجعية المعنى، وهي كلها معطيات غير متاحة إلا لمن أوتي مجموعة من الأدوات المعرفية"[19] . ومن الاقتباس دائما نجده في قوله: "كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المستعمرين الجبارين " [20] وهذا اقتباس من قوله تعالى ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[21]

أما ما ضمنه في مقالاته مما جادت به ذاكرته من آيات القرآن، نجد في مقال له يقول "ويمينا بالذي طهر المعهد وأنزل في كتابه ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ... ﴾[22]لنقطعن من هذه الفتنة دابرها، ولنقطعن من هذه الفتنة مقيمها وعابرها ." [23]ويمضي الإبراهيمي في عرض أفكاره، مستندا على آيات القران وهو يرد على من زعم أن الجزائر فرنسية فيقول "وهل الجزائر فرنسية ؟ لا يا قوم لا، إن الله خلقها عربية مسلمة وستبقى عربية مسلمة إلى ما شاء الله وإن الوراثة وسمتها بسمات خالدة وصفات ثابتة لا تفارقها حتى يفارق الشمس إشراقها، ملكها الرومان فلم تنقلب رومانية، وبادوا ولم تبد وبقيت ولم يبق منهم إلا أثار الظلم ومعالم الطغيان﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[24].

لقد حفظ الإبراهيمي القرآن وتمعّن في معانيه وتذوق بيانه فظهر أثر ذلك في نفسه وقلبه ولسانه وفكره فزخرف رسالته بآي القرآن مقتبسا حينًا ومضمنا حينًا آخر.ومجمل القول أن ثقافة الإبراهيمي قد ارتكزت على القرآن إذ يقول في فضل القرآن " القرآن هو الذي ربّاها وأدبها وزكّى منها النفوس وصفّا القرائح وأذكى الفطن وهذب الأفكار وأعلى الهمم واستفزّ الشواعر واستثار القوى، وصقل الملكات وقوّى الإرادات ومكّن للخير في النفوس وغرس الإيمان في الأفئدة وملأ القلوب بالرحمة وحفّز الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المثمر"[25] ويرى الإبراهيمي أن القرآن الكريم هو أساس الملكة السليمة قولا وعملا وكتابة وخطابة إذ يقول في هذا الشأن" ...والقرآن القرآن تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة وربّوا ألسنتكم على الاستشهاد

به في اللغة والقواعد وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون..."[26] لذلك جعل الإبراهيمي أدبه تحوي صورا معبرة مقتبسة من القرآن مما أعطى لأدبه مذاقا خاصا .

وخلاصة القول أن الإبراهيمي حفظ القرآن فعرف بيانه ووعى أسراره وكان ذلك أمارة من أمارات أدبه وطابعا يتميز به فنّه الأصيل وجواهر يرصّع بها أدبه خاصة وأنه منطلق من لسان سليم وصاحب عقل حكيم ومن الأمثلة لتي أوردناها نستشف سر الإتقان والجودة في اختيار اللفظ المناسب وفوق هذا ندرك أن القرآن متى أحسن حفظه وأتقن ذكره وفهم معناه كان نعم المنجد ونعم النصير وجعل كل من يهرع إلى حماه من العظماء وكل من تمسك به تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام عنها.

مراجع البحث وإحالاته:

01- ابن خلدون، المقدمة ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1، 1984، ص 722.

02- محي الدين محمد . ثقافة الإبراهيمي وأثرها في أسلوبه . عيون البصائر نموذجا. مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الحديث بإشراف محمد غيتري جامعة تلمسان .2007-2008.ص 6.

03- ابن الأثير. المثل السائر.ص 42 .

04- عبد الرزاق قسوم. محمد البشير الإبراهيمي مهندس اللفظ وفيلسوف المعنى. مجلة الموافقات. العدد4 . ص.406

05- سورة الحجر .الآية .22

06- سورة القلم. الآية 19.

07- سورة المطففين . الآية 26.

08- الإبراهيمي. عيون البصائر.ص487.

09 - سورة مريم. الآية 15 .

10 - سورة يونس . الآية 05.

11- الإبراهيمي. آثار الشيخ الإبراهيمي. ج1 .ص253.

12.سورة الحاقة الآية 32

13 - الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 36

14- سورة النحل الاية 103

15- الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 42

16 - سورة هودالأية 49

17- الإبراهيمي عيون البصائر ص43

18- سورة الكهف الآية 82

19 – عبد الرزاق قسوم، محمد البشير الإبراهيمي، مهندس لفظ وفيلسوف معنى، مجلة الموافقات العدد 4 ص 406

20- الابراهيمي، البصائر، سل2، ع4، 1947، ص 1

21 – سورة الكهف الآية 5

22- سورة يس الآية 60

23. الإبراهيمي، عيون البصائر، ص .25

24. سورة القصص الآية .58

26. آثار الإبراهيمي ج1، ص253.